

فريضة الصيام

يقول الله ، تبارك وتعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ^(١).

وتفيد هذه الآية أن الصوم عبادة مفروضة في جميع الأديان ، وعند جميع
الأمم ، وإن اختلفت كلفه ووقته .

ولقد بدأ نزول الوحي على الرسول ﷺ في رمضان . وفي رمضان كذلك
نزلت الكتب السماوية من قبل ، على إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة
والسلام . . .

(١) الآية ١٨٣ سورة البقرة .

قال رسول الله ﷺ :

« أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » .

فما الذي يدل عليه هذا الترابط بين نزول الكتب السماوية في رمضان ، وبين فرض الصيام على أمة محمد ﷺ كما فرض على الأمم من قبلهم ؟

إن نزول الكتب السماوية : صحف إبراهيم ، والتوراة ، والإنجيل ، والقرآن . . هداية للبشر ونوراً على طريق الإنسانية ، نعمة كبرى من الخالق - جل جلاله - تستحق الشكر من عباده . وقد جعل الله هذا الشكر الذي يرضاه ويتقبله في صورة الصوم ، لأنه تقرب إلى الله بالتجرد عن أخص مقومات البشرية . . الطعام والشراب والشهوة . وفرض الله - سبحانه - عبادة الصوم هذه في الشهر الذي أنزل فيه القرآن ، وأنزلت فيه من قبل صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل .

* * *

وقد فرض الله الصيام في العام الثاني من الهجرة . وكان الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة يصوم يوم عاشوراء ، فلما فرض صيام شهر رمضان نسخ صيامه كل صوم ، وصار ما عداه تطوعاً من شاء صامه ومن شاء تركه .

وللصوم عند الله منزلة كبيرة بين سائر العبادات ، يقول الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي :

« كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي ، وأنا أجزي به » .

ويقول الرسول ﷺ :

« من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقال ﷺ لما حضر رمضان :

« يا أيها الناس : قد جاءكم رمضان شهر عظيم مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين . فيه ليلة خير من ألف شهر » .

وقال ﷺ :

« والذي نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

وقال : « من أفطر يوماً من رمضان في غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر وإن صامه » .

وقال الحسن البصري :

« إن الله تعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه ، يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر المبطلون » .

• • •

والصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

ولكن الإمام الغزالي يرى أن الصوم ثلاث درجات :

- صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة .
- صوم الخصوص : وهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام .
- صوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية .

ويقول الإمام الغزالي : « إن هذه الدرجة الثالثة من الصوم ، يحصل الفطر فيها بالفكر فيما سوى الله - عز وجل - واليوم الآخر ، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد لدين » .

ونحن لا نطمع في أن نصل إلى هذه الدرجة الثالثة ، وإن كان الطموح في أمر الدين لا يقل شرفاً وهمة عن الطموح في أمر المعاش ، ولكن الذى يتصل بحقيقة الصوم وحكمته اتصالاً وثيقاً هو ما أورده الإمام الغزالي في الدرجة الثانية ، وهو كف الجوارح عن الآثام ، وهذا يستدعى بالضرورة أن يتحرى الإنسان في صيامه ما هو أبعد من شهوة البطن والفرج . هناك شهوة الجوارح : السمع والبصر واللسان واليد والرجل وغيرها من الأعضاء . . . إن الصوم لا يتم معناه وتتحقق ثمرته إلا بإمساك هذه الجوارح عن المنكر :

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ :

« كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » .

ويقول : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

ويقول : إنما الصوم جنة ، فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم ، إني صائم » .

ويقول : « إن الصوم أمانة ، فليحفظ أحدكم أمانته » .

هذا وليس بصائم من ترك ما أبيح له ، ووقع فيما حرم عليه . ذلك لأن الصائم يمسك عن الطعام والشراب ومباشرة الزوجة ، وكل هذا من الطيبات التى أحلها الله . امتثالاً لأمر الله تعالى وتقرباً إليه بالطاعة والعبودية والإخلاص . فكيف بهذا الصائم لا يمسك بصره عن النظر إلى ما حرم الله من عورات النساء ، ولا يمسك لسانه عما نهى الله عنه من الكذب والنميمة ، ولا يمسك أذنه عن سماع الأكاذيب

والشائعات ، ولا يمسك يده عن السرقة والتطفيف في الكيل والميزان ، ولا يمسك
رجله عن السعى إلى ما يغضب الله ؟

إن مثل هذا هو الذى يطلق عليه وصف : الصائم المفطر !

...

هذا وجدير بالإنسان بعد أن تذوق حلاوة العبادة في شهر رمضان ، واستمتع
بشمرات الصوم في جسمه وروحه ، ألا ينقطع عن ممارسة هذه العبادة تطوعاً بعد
انقضاء رمضان .

إن صيام التطوع يدل على قوة الإخلاص ، في العبادة لله - تبارك وتعالى -
وهو من النوافل التى قال عنها - سبحانه - في حديثه القدسي :
« ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى
يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ولئن سألني لأجيبنه ،
ولئن استعان بي لأعيننه » .

ذلك لأن النوافل ، وهى العبادات غير المفروضة ، إنما يكون الدافع إليها شدة
الرغبة في الإقبال على الله ، والاستزادة من فضله ورضوانه ، وأداء حق الشكر على
نعمه وآلائه ، ولهذا تبلغ بصاحبها مقام الحب الإلهي ، وما يفيضه على المؤمن من
أنوار الهداية ومنح العناية .

وأول ما يلحق برمضان من هذه النوافل ، صيام ستة أيام من شوال .

وعن ذلك يقول الرسول ﷺ :

« من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال فذاك صيام الدهر » ، أى كأنه صام
العام كله .

يفسر ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

ذلك أن كل يوم من أيام رمضان يعدل صيام عشرة أيام ، فالشهر يعدل ثلاثمائة يوم ، وستة من شوال تعطى في ميزان الله صيام ستين يوماً فتلك أيام العام كله . . ثلاثمائة وستون .

وإن في صيام ستة أيام من شوال لحكمة جليلة ، إنه امتداد لأسلوب العبادة الذي ألفه الصائم في رمضان ، لفترة يتدرج فيها بين الصيام المستمر لمدة ثلاثين يوماً ، وبين الإفطار بقية العام .

التهدد وقيام الليل

حين يرخى الليل سدوله ، وتهدأ حركة الحياة والأحياء ، ويأوى الناس إلى مضاجعهم بعد تعب النهار ، وتستغرق الأجسام فى النوم والأحلام .
فى ذلك الوقت نجد من الناس فريقين لا يطرق النوم عيونهم ، يفضلون ليلهم ساهرين والناس نيام ، ولكن شتان بين فريق وفريق .

أما أولهم ففريق يريد الهروب من واقعه والتخلص من متاعبه ، فيضل الطريق إلى الملجأ المكين الذى يجد فيه سكينه النفس وطمانينة القلب ، وتسهبه الشياطين إلى دور الملامى وموائد القمار ومجالس السوء .. يحاول أن يفرق فيها همومه وينسى نفسه . وإنه ليظفر من ذلك ببعض ما يريد ، ولكنه ينصرف آخر الليل محطم الأعصاب خاوى الجيب كئيب النفس .. وإن كثوس المتعة التى شرها ليطفى بها ظمأه ويفرق فيها متاعبه ، لم ترده إلا ظمأ وحرقة ، ولم يلبث أن يتبدد أثرها فى

جسمه ونفسه ، ليفيق على واقعه الأليم الذى حاول الهروب منه ، فإذا هو مازال يرسف فى أغلاله ، وقد أضاف إلى ذلك أنه أصبح أسير هذه العادة التى استهوته إليها الشياطين .

هذا فريق من الناس يحى الليل ويميت قلبه ونفسه .
وأما الفريق الآخر فما أبعد الفرق ، وما أشد اختلاف الصورة .
إنهم قوم استقام منهمجهم بالنهار والليل ، يعرفون حق الله وحق أنفسهم فى معاشهم بالنهار ، ويقومون بشكر الله على فضله حين تنام العيون !
يصفهم الإمام على - كرم الله وجهه - فيقول :
« أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلاً .. وأما النهار فحلمااء علماء ، أبرار أتقياء » .
ومن أوصافهم أنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار !

وإذا كان الفريق الأول يحاول أن يفر من همومه وأوزاره بإغراق نفسه فى المعاصى والممذات المحرمة ، فإن الفريق الآخر يفر إلى الله متجرداً عن عيوبه مستغفراً لذنوبه ، هم يلجأون إلى الله فى هدأة الليل وقد سكنت من حولهم الحياة ونامت العيون ، يحيون ليلهم بالذكر والصلاة والاستغفار والدعاء ، فتنسكب فى أرواحهم الطمأنينة وتنشأهم الرحمة ، وتمتلئ نفوسهم قوة بالله فى مغالبة متاعب الحياة .

وقيام الليل من أعظم القربات إلى الله ، وهو فى رمضان أعظمها قربة وأكثرها ثواباً منه فى سائر الأوقات ، وهو فى ليلة القدر قمة العبادة فى شهر رمضان !
ولقد وصف الله - تبارك وتعالى - عباد الرحمن الذين كرمهم بأن نسبهم إلى نفسه فقال مما وصفهم به :

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) ^(١) .

وقال تعالى في وصف المؤمنين :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) ^(٢) .

وقيل في تفسير قوله تعالى :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) ^(٣) .

« .. استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو . وقال تعالى

لرسوله الكريم بعد أن أنزل عليه الوحي : ليهيئه لحمل تبعات الرسالة :

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ
قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا
ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي
النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) ^(٤) .

وكان الرسول ﷺ حين انقطع عنه الوحي فترة بعد ليلة : اقرأ .. قد حزن

حزنًا شديدًا حتى كاد يتردى مرارًا من رموس الجبال الشاهقة . ويقول ﷺ :

(١) الآية ٦٤ سورة الفرقان .

(٢) الآية ١٦ سورة السجدة .

(٣) الآية ٤٥ سورة البقرة .

(٤) الآيات من ١ إلى ٨ سورة المزمل .

« بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني .. زملوني .. فأنزل الله :

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ..) (١) .

ثم نزلت عليه سورة المزمل .. أى المدثر ، المتلفف في ثيابه .. على أسلوب العرب عند الملاحظة ، حين تنادى الشخص بالاسم المشتق من حالته التى هو عليها .. فكان هذا النداء من الله ملاطفة لرسوله وتطمينا لقلبه ، ثم كانت هذه السورة توجيهاً له إلى قيام الليل ، وما فى القيام من رياضة للنفس وعبادة الله تعالى .

وفى هذه السورة عدة معان لقيام الليل يحسن أن نقف عندها قليلا :
« إن الله - تبارك وتعالى - حين أوجب على رسوله ﷺ قيام الليل ، خيره بين أن يقوم نصفه أو ثلثه أو ثلثيه فقط . فكان الرسول ﷺ وكان أصحابه - اقتداء به - يقومون الليل كله خوفاً من الإخلال بالمقدار المطلوب لعدم التمكن من ضبطه ، واشتد عليهم ذلك حتى تورمت أقدامهم من مشقة القيام . فلما صدقوا الله فى أداء هذه العبادة أنزل الله على رسوله فى آخر هذه السورة قوله تعالى :
(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عِلْمَ اللَّيْلِ تُخْصَوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ،

(١) الآيتان ١ و ٢ سورة المدثر

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى . وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ
يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرُوا مَا تَيْسَّرُ
مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ،
وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ
أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) .

● إن المقصود بترتيل القرآن في قيام الليل ، ليس قراءته فحسب .. ولكن
المعنى ينسحب على الصلاة ، لأن الصلاة تسمى قرآنًا ... فذلك قوله تعالى :
(وَقرآن الفجرِ إنَّ قرآنَ الفجرِ كَانَ مشهُودًا) .

أى صلاة الفجر ، ويفسر ذلك أيضًا ماورد من كلام الإمام علي بن أبي طالب
في وصف المتقين : « أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلون
ترتيلًا .. فهم حانون على أوساطهم « في الركوع » مفترشون « في السجود » لجباههم
وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم .. »

إن ناشئة الليل ، أى عبادة الليل هى أشد ثباتًا فى القلب . وقيل النفس
الناشئة .. أى النفس المهجدة ، لأنها تنشأ - أى تنهض - من مضجعها للعبادة ،
كما أن الإنسان يكون عادة مشغولا بعمله والسعى على معاشه بالنهار ، فلا يستطيع
أن يتفرغ للعبادة إلا فى الليل ، حيث تكون العبادة فيه أدعى لحضور القلب ،
والانصراف إلى الله عن كل ما عداه .. وهذا هو معنى التبتل إلى الله .

« إن الله - تبارك وتعالى - قد خفف على رسوله وعلى المؤمنين قيام الليل على

(١) الآية ٢٠ سورة المزمل .

هذه الصورة ، وجعله ميسراً لمن أراد أن يؤدي هذه العبادة فقال :

(فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) .

أى فادوا ما تيسر من الصلاة . وقوله ﷺ فى قيام الليل : « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ... »

وقال ﷺ : « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » ،

وقدر ذلك بنحو أربع ركعات .

• • •

وفى فضل قيام الليل يقول الرسول ﷺ : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » .

وفى الليل تصفو النفوس من مشاغل الحياة فيكون إقبالها خالصاً على الله . إنها لتجد فى ظلام الليل نور الله يتجلى على عباده فتطيب القلوب بمناجاته وتشرق الوجوه باجتلاء آياته .

قيل للحسن بن على ، رضى الله عنهما :

ما بال المتجدين من أحسن الناس وجوهاً ؟

فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وقال لقمان الحكيم لابنه : يا بنى لا يكونن الديك أكيس منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم .

وقال سفيان الثورى ، رضى الله عنه :

- إذا كان أول الليل نادى مناد من تحت العرش : ألا فليقم العابدون ،

فيقومون ويصلون إلى السحر . فإذا كان السحر نادى مناد : ألا فليقم المستغفرون ،

فيقومون ويستغفرون . فإذا طلع الفجر نادى مناد : ألا فليقم الغافلون ، فيقومون

من فرشهم كالموتى من قبورهم .

وفي هذا القول معان من قول الرسول ﷺ :

« يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

ألم يلاحظ أحدكم هذا الشعور حين يستيقظ قبل طلوع الفجر فيتوضأ ويصلي ويذكر الله تعالى ، فإذا هو يستقبل يومه نشيطاً طيب النفس ، فإذا ظل نائماً في فراشه حتى تطلع الشمس قام على هذه الحالة التي وصفها الرسول ﷺ .

على أن قيام الليل مع ما يبذله الإنسان من جهد العمل بالنهار يحتاج إلى تنظيم وحسن تدبير ، حتى لا يؤدي إلى الإرهاق وتعطيل الإنسان عن معاشه .

وأول ما يجب تدبره في ذلك أن يحسن الإنسان تقسيم اليوم والليلة بين العمل والنوم والراحة . إن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة . وحد الاعتدال في النوم ثمانى ساعات . أفلا يكفيه أن ينفق في النوم ثلث عمره ١٩

فإذا استطاع أن يقضى هذه الساعات متصلة ، كان له أن ينام مبكراً ثم يستيقظ في الثلث الأخير من الليل فيقوم ما بقى منه في الذكر والصلاة . وإذا شاء نام قليلاً واستوفى حظه من النوم في الليل ، وإياه لو وجد فسحة من الوقت تبقى له يقضيها في القيام للتهجد والصلاة .

ويكره قيام الليل حتى صلاة الفجر ، لأن ذلك يترك أثره على نشاط الإنسان فيغدو على عمله وهو معرض للنعاس .. ولقد كان الرسول ﷺ يقوم الليل ما شاء الله أن يقوم ثم ينام حتى يؤذن بلال للصلاة .

وإن من قيام الليل ما لا يشق على أحد مهما كانت ظروفه ، ذلك هو إحياء ما بين المغرب والعشاء .

روى الحسن - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ سئل عن المراد بقوله تعالى :

(تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

فقال : الصلاة بين العشاءين « المغرب والعشاء » . ثم قال ﷺ :
- « عليكم بالصلاة بين العشاءين ، فإنها تذهب بملاغة النهار » من اللغو
وتذهب آخره .

وإن مما يعين على قيام الليل أموراً منها :
- الإقلال من الطعام والشراب عند تناول العشاء .
- أن يعتاد الإنسان النوم بعض الوقت في النهار .
- وقبل هذا وذاك أن يستشعر الخوف من الله والرجاء في رحمته .

إن ذلك كفيلاً بأن يصرف عنه النوم ، ويشد عزمه قيام الليل ، حيث يجد في
معاونة الخوف والرجاء ما يجده العاشق من لواعب الحرمان وأشواق الوصال . وإذا
كان الإنسان لا يطرق النوم جفنه إذا شغلته مشكلة من مشكلات الحياة ، أو إذا
شفه الشوق إلى حبيب أو قريب ، فكيف تطيق عيناه النوم إذا ما استحضرت مشكلة
وجوده ومصيره ؟

وكيف لا ينشط للسهر ولا يستمتع بلذة قيام الليل حيث يخلو الحبيب بحبيبه
يتناجيه ويتقرب إليه ويستمد من رحمته ونوره ؟

قال الإمام الغزالي رضى الله عنه : روى عن بعض السلف أن الله أوحى إلى
بعض الصديقين أن لى عبادة من عبادى يحبونى وأحبهم ، ويشاقون إلى وأشتاق
إليهم ، ويذكرونى وأذكركم ، وينظرون إلى وأنظر إليهم . فإن حدثت طريقهم
أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . قال يارب ، وما علامتهم ؟

فذكر من علامتهم أنهم يحنّون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب . فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة ، وخللا كل حبيب بحبيبه . نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم ، وتاجوا بكلامهم وتملقوا إلى بلانعامي . فهم بين صارخ وبالك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راکع وساجد . بعني ما يتحملون من أجل ، ويسمعي ما يشكون من حبي . أول ما أعطيتهم ثلاث : أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة أقبل بوجهي عليهم ، ومن أقبلت عليهم بوجهي لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .

ادعوني أستجب لكم ..

يقول الرسول ﷺ :

« إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة » .
وما أجمل أن يتوجه الإنسان إلى الله بالدعاء في جوف الليل ، وقد هجعت القلوب ونامت العيون .

إن الدعاء عبادة ، كما يقول الرسول ﷺ وهو بالليل أخرى بالإجابة والقبول ، حيث يكون الإنسان قريباً من رحمة ربه التي يتجلى بها على عباده وفي ذلك يقول الرسول ﷺ :

- ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول

عز وجل : « من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ؟ » .

وإذا كان الله تبارك وتعالى يقول :

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ^(١) . وذلك في أى وقت يتجه فيه الإنسان

إلى الله بقلب سليم ، فإن هناك أوقاتاً يكون فيها الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ومنها الدعاء بين الأذان وإقامة الصلاة ، وعند السجود حيث يكون العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وأن يدعو الإنسان لأخيه بظهر الغيب . وخير الدعاء ما ورد في كتاب الله . ومن ذلك قوله عز وجل :

(... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) ^(٢) .

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) ^(٣) .
(رَبَّنَا لَا تَرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) ^(٤) .

(١) الآية ٦٠ سورة غافر .

(٢) الآية ٧٤ سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٠ سورة الحشر .

(٤) الآية ٨ سورة آل عمران .

(رَبَّنَا لَا تَوَخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ
لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (١) .

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ) (٢) .

ثم ما كان يدعو به الرسول ﷺ من ماثور الدعاء .
ومن ذلك قوله : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز
والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر
الرجال .

وكان من عادته ﷺ حين يقوم للتهجد بالليل أن يتوضأ ثم يتوجه إلى مصلاه
ويقوم مستقبلاً القبلة ويقول :

« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء
السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ، ولك الحمد
أنت قيوم السموات والأرض ، ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ، ومنك
الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنشور حق ، والنيون حق ،
ومحمد ﷺ حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت

(١) الآية ٢٨٦ سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٠٦ سورة البقرة .

وبك خاصمت وإليك حاكمت . فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت . واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت ، أسألك مسألة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل ، فلا تجعلني بدعائك رب شقياً . وكن بي رءوفاً رحيمًا ، يا خير المسئولين وأكرم المعطين » .
هذا وللمرء أن يدعوا الله بما شاء مما يصلح ديناه وآخرته ، وأن يكثر من الدعاء ما استطاع فإن في ذلك مرضاة لله تبارك وتعالى . يقول الرسول ﷺ :
« سلوا الله تعالى من فضله فإن الله يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

ويقول ﷺ :

« ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأل شسع (سير) نعله إذا انقطع » .

فإذا أبطأت الإجابة فإن لذلك أسباباً منها :
أن يكون الداعي مقصراً في حق الله أو حق الناس فذلك حجاب دعوته ، أو يكون رجلاً صالحاً يدخر الله له أفضل مما طلب . قال الرسول ﷺ :
« مامن رجل يدعوا الله تعالى إلا استجاب له ، فإما أن يعجل له في الدنيا ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر مادعا ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل » .

ومن المؤمنين من تسمو مراتبهم فيكتفون بالثناء على الله تبارك وتعالى ، ويشغلهم حمده والثناء عليه عن مسألته والتوجه إليه بالدعاء ، وفي هؤلاء يقول الله تبارك وتعالى في حديثه القدسي :

- من شغلته ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائدين .
وعن الحسين بن الحسن المروزي قال : سألت سفيان بن عيينة عن أفضل
الدعاء يوم عرفة ، فقال :

- « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

قلت له : هذا ثناء وليس بدعاء .

فذكر له هذا الحديث القدسي : ثم قال سفيان : أما علمت ما قال أمية بن
أبي الصلت حين أتى عبد الله بن جدعان (من أجواد العرب) فقال :

أَذْكُرُ حاجتي أم قد كفاني

حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالحقوق وأنت فرع

لك الحسب المهذب والسناء

إذا أثني عليك المرء يوماً

كفاه من تعرضه الثناء

ثم قال سفيان : هذا مخلوق يكتفي بالثناء عليه دون مسألة ، فكيف بالخالق ؟
وأما الاستغفار فهو الدعاء بطلب المغفرة ، إن كل إنسان معرض لأن يخطئ
أو يذنب ، وإن من أسماء الله تبارك وتعالى الغفار الغفور التواب الرحيم ..

يقول - جل شأنه - في وصف المتقين :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يَصِرُوا
عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)^(١) .

(١) الآية ١٣٥ سورة آل عمران .

وقال في وصف هؤلاء :

(الصابرين والصّادقين والقائتين والمنفقين والمستغفرين
بالأسحار)^(١) .

وقال تعالى :

(ومنْ يَعملْ سُوءًا أَوْ يَظلمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ
غَفُورًا رَحِيمًا)^(٢) .

وقال ﷺ :

« إن أفضل الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ،
وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء (أرجع)
لك بنعمتك علىّ ، وأبوء على نفسى بذنبي ، فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبي ،
فاغفر لى ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .
على أن للاستغفار شروطاً لا يصح ولا يكون مقبولا عند الله إلا بها .
قال رجل بحضرة الإمام على ، رضى الله عنه : أستغفر الله .
فقال له كرم الله وجهه :

- « ثكلتك أمك .. أتدرى ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو

اسم واقع على ستة معان :

• أولها الندم على ماضى ..

• والثانى العزم على ترك العودة إليه أبداً ..

(١) الآية ١٧ سورة آل عمران .

(٢) الآية ١١٠ سورة النساء .

• والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أمنس ليس عليك التبعة .

• والرابع أن تعتمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها .
• والخامس أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيه بالأحزان حتى تلتصق بالجلد بالعظم وينشأ بينها لحم جديد ...
• والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ...
فعند ذلك تقول : أستغفر الله .

وكانت رابعة العدوية - رضى الله عنها - تقول : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار !

ومن فضل الله تعالى على المستغفرين ، أنه يستر عيوبهم ويفقر ذنوبهم يزيدهم فضلا فيمنحهم الرزق الوفير .
قال تبارك وتعالى :

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . ويمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارًا)^(١) .

(١) الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ . سورة نوح .

اذكروني .. أذكركم

للذكر معانٍ وصور كثيرة :

- فالذكر هو القرآن الكريم كما ورد ذلك في آيات كثيرة ، يقول الله تبارك

وتعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^(١)

(وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) ^(٢)

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) ^(٣) .

(١) الآية ٩ سورة الحجر .

(٢) الآية ٥٠ سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٦٩ سورة يس .

ولهذا فإن تلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه ، وتدبر معانيه وتمثلها في القول والعمل ، أفضل أنواع الذكر وأعمقها أثراً في النفوس وأكثرها قبولاً عند الله .
والذكر يكون بمعنى حضور القلب وظهور برهان الله :

يقول الله تبارك وتعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (١) .

(وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي) (٢) .

(وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) (٣) .

(وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبِ

مِنْ هَذَا رَشَدًا) (٤) .

ويكون الذكر باللسان وهو رياضة الجوارح تستثير به كوامن النفس ، وحضور القلب وتنشغل به عن اللغو ، وفي كل خير .

يقول الله تبارك وتعالى :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (٥) .

(١) الآية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٦٤ سورة يوسف .

(٣) الآية ٢٠٥ سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢٤ سورة الكهف .

(٥) الآية ٢٨ سورة الرعد .

ويقول رسول الله ﷺ :

- « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل .

قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟

قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب

به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع .

وقال ﷺ :

- « سبعة يظلهم الله - عز وجل - بظله يوم لا ظل إلا ظله » .

ومن هؤلاء السبعة رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله .

ويقول ﷺ :

- « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل ، إلا حفت بهم الملائكة

وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده » .

وقال ﷺ :

- إن لله ملائكة سياحين في الأرض .. يطوفون في الطرق يلتمسون أهل

الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجاتكم . فيحفونهم

بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي ؟

فيقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ... » .

فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك .

فيقول : كيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد

تمجيذاً وأكثر تسييحاً .

فيقول : فما يسألوني ؟ فيقولون : يسألونك الجنة .

فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوها .

فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ،
وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة .

قال : فم يتعذون ؟ فيقولون : من النار .

فيقول الله : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوها .

فيقول الله : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ،
وأشد لها مخافة .

فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم .

فيقول ملك من الملائكة : فيهم (فلان) عبد خطيء ليس منهم ، إنما جاء
لحاجة .

فيقول : وله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ... » .
وقال ﷺ :

- « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟

قال : مجالس الذكر .

وكان عمر - رضى الله عنه - يقول لمعاذ بن جبل :

- « قم بنا تؤمن ساعة » .

فيقفان ويقولان : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله .. (جماعة) ويقول عمر :

هي ورب الكعبة .

وروى أبو نعيم عن الفصيل بن عياض - رضى الله عنه - قال :

- كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تعالى تمايلوا يميناً وشمالاً ، كما

تمايل الشجرة في الريح العاصف إلى قدام ثم ترجع إلى الوراء .

ومن هذا أخذ بعض الذاكرين طريقهم في الذكر على هذه الصورة ، وإنما

يحصل الوجد بمقدار التذوق ، وتهتز الجوارح بمقدار صدق الشعور ، على ألا يخرج

الذاكرون عن مقام الحشية لله التي تفسدها عريضة الجوارح ومزامير الشيطان .
يقول الله تبارك وتعالى :

(الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَلًا تَقْشَعْرُ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى
ذِكْرِ اللَّهِ) (١) .

وفي وصف أحوال الذاكرين يمتدح الإمام على رضى الله عنه أحدهم فيقول :
« إن كان في الغافلين كُتِبَ في الذاكرين ، وإن كان من الذاكرين لم يكتب
من الغافلين » .

ذلك أن من الذاكرين من تكون ألسنتهم ناطقة وقلوبهم غافلة ، وإن من
الذاكرين من تصمت ألسنتهم وتكون قلوبهم مشغلة بذكر الله .
هذا وإن جماع هذه المعاني كلها أن يكون الله - تبارك وتعالى - حاضراً في
قلبك وسلوكك وغايتك ، لا تغفل عن هذه الحقيقة الكبرى مهما انصرفت بك
الشواغل واستبدت بك الأهواء . فإذا كنت ذاكرة لله تعالى في سكناتك
وحركاتك ، في أقوالك وأفعالك ، في قصدك وغايتك ، لم تحدد عن الطريق
المستقيم في علاقتك بالله وعلاقتك بنفسك وعلاقتك بالناس ...

وبذلك تستحق وعد الله - تبارك وتعالى في قوله :

(اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

- (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ !) .

(١) الآية ٢٣ سورة الزمر .

رضا الله .. وسخط الناس

المؤمن الحق هو الذى يعبد الله مخلصاً له الدين ، يأتمر بأوامره وينتهى عن نواهيه . لا تأخذه فى الله لومة لائم ، يلتمس رضا الله فيما يقول ويفعل ولو أغضب الناس جميعاً . ولا يمارى فى الحق أو يجيد عنه التماساً لرضا من هو أقوى منهم ، أو بحاملة لقريب أو صديق . ومثل هذا الإنسان المؤمن يكون دائماً فى رعاية الله وحمايته وإن سخط عليه الناس وتوعدوه ، فهو غنى بالله عن خلقه ، عزيز بجاهه الذى لا يطاوله جاه ، قوى بسلطانه الذى يقهر كل سلطان .

والمؤمن الذى يبلغ هذه المرتبة من الإيمان بالله ، لا يبلغها إلا بعد أن يروض نفسه على الصبر والمجاهدة ، وإدراك قيمته الحقيقية فى هذه الحياة وقيمة الآخرين ، والتمسك بحبل الله القوى المتين .

والتماس رضا الله إنما يكون بالتزام حدوده ، وأداء فرائضه ، والجهاد فى

سبيله ، والتقرب إليه بصالح الأعمال . وهذه كلها وسائل نحتاج إلى إرادة قوية ، وبصيرة واعية ، ونفس زكية . لأنها وسائل تقوم على الجاهدة والعزيمة والبذل ، وهي صفات لا يطبقها إلا من راض نفسه على احتمال أعبائها . وهؤلاء قد يكونون قلة في المجتمع بين سواد الناس ، ولكنهم قلة قوية قادرة . تثبت على الحق فلا تضعف لما إرادة ، ولا تميل مع الأهواء حيث يميل الناس . ولقد أثنى الرسول ﷺ على أمثال هؤلاء فقال : طوبى للغرباء .

قيل : ومن الغرباء يارسول الله ؟ قال : « الذين يصلحون حين فساد الناس » .

ومن هنا كان أمثال هؤلاء « الملتزمين » عرضة للسخرية في المجتمعات التي لا تدين بمبادئهم ، ولا تلتزم بما تفرضه هذه المبادئ من حدود وقيود . وقد يتعرضون لما هو أشد من السخرية والاستهزاء ، قد يتعرضون للمطاردة والإيذاء ، كما تعرض الرسول والأنبياء من قبله ، وأصحاب المبادئ الإنسانية في سبيل أداء رسالاتهم لكثير من الأذى الذي وصل في حالات كثيرة إلى حد الموت .
(فَمَا وَهَنُوا^(١) لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ^(٢)) .

وكان الله دائماً مع رسله وأنبيائه والداعين إلى طريقه ، يؤيدهم بنصره ، ويكلوهم^(٣) برعايته ، حتى تكون كلمة الله هي العليا . فقد ألقى القوم إبراهيم - عليه السلام - في النار ، فقال الله عز وجل :

(١) ضعفوا .

(٢) الآية ١٤٦ سورة آل عمران .

(٣) بجرسهم .

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)^(١) .

واتممر مشركو مكة بمحمد ﷺ ليقتلوه . وحين أوشكوا أن يكتشفوا محبته في الغار نجاه الله من شرهم وحماه من كيدهم وكتب النصر لدينه .

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٢) .

وما من داع إلى الحق أو مستمسك به إلا لقي في سبيل دعوته واستمساكه بالحق كثيرًا من المعارضة والمناوأة والإيذاء . إنها ضريبة الإيمان بالحق والثبات عليه ، يؤديها المؤمن طيبة بها نفسه ، ليكون جديرًا بالمستوى الذي بلغه والذي يمتاز به على سائر الناس .

فإذا بلغ الإنسان في جهاده مرتبة الشهادة فتلك أسمى المراتب ، إنه الامتحان الكبير الذي أعده الله للصفوة من عباده . يقول الله تعالى :

(... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ)^(٣) .

وقد يتعرض الإنسان في حياته لمواقف تجعله في حيرة بين التزام جانب الحق ولو أغضب الناس ، وبين مجاراتهم في الباطل ولو أغضب ربه وتنكر لمبادئه . إن

(١) الآية ٦٩ سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٠ سورة التوبة .

(٣) الآية ١٤٠ سورة آل عمران .

الرسول ﷺ ينقذك من هذه الخيرة حيث يقول :
« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مثوة الناس . ومن التمس
رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى إلى الناس » .

وحين تكون المقابلة والاختيار بين رضا الله بسخط الناس ، وبين رضا الناس
بسخط الله . فإنها تكون صفقة رابحة لمن يختار رضا الله عز وجل ولو سخط عليه
الناس جميعاً . إنه بذلك يكون في جانب الحق فلا يضره أن يكون غيره على
الباطل ، وإن الله ليغنيه عن الناس ويكفيه شرهم وأذاهم .
(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) (١) .

أما الذي يختار رضا الناس بسخط الله فتلك هي الصفقة الخاسرة ، وذلك هو
الخسران المبين .

ذلك لأن الإنسان لا يملك لغيره نفعا ولا ضرا ، إلا ما قدر الله أن يكون .
يقول الرسول ﷺ :
« . . . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد
كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله
عليك » .

وأنت حين تلتبس رضا أحد من أصحاب الجاه أو ذوى القربى بسخط الله ،
فتجاريه في الباطل ، وتؤدي له شهادة الزور ، وتشاركه فيما بقرفه من الآثام
والمنكرات ، طمعاً في جاهه أو ماله ، أو مجاملة له أو استحياء منه ، إنما تكون
بذلك قد قطعت صلتك بالله ، وبعث نفسك لإنسان مثلك ، فإما أعطاك فهو يمن
عليك العطاء ويستذل به كرامتك ، وإما حرملك فتكون قد خسرت نفسك

(١) الآية ٣٨ سورة الحج .

وخسرت ما كنت تطمع فيه من أعراض الحياة الزائلة .

وانت حين تركزن إلى أمثال هؤلاء فتقع معهم فيما يسخط الله انتماساً لرضاهم ، ثم تحين ساعة الحساب في الدنيا أو في الآخرة ، لن تجد من هؤلاء أحداً إلى جوارك يحميك أو يدافع عنك ، مهما كان ذا جاه وسلطان ومال ، بل إنهم سرعان ما يبتعدون عنك ويتبرءون منك ، ويقطعون ما بينك وبينهم من الروابط والأسباب .

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ . إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ^(١) فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) ^(٢) .

ويقول الله تعالى في أمثال هؤلاء :

(الْأَخِلَاءُ ^(٣) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) ^(٤) .

ولقد يفرض عليك الواجب أن تنتصر لأخيك . نعم تنتصر له ولكن بالحق ، فلا تعينه على الظلم لتكتسب رضاه ، بل تمنعه عن الظلم وبذلك تنصره على هواء . قال ﷺ :

(١) رجعة إلى الدنيا .

(٢) الآيات من ١٦٥ إلى ١٦٧ سورة البقرة .

(٣) الأصدقاء .

(٤) الآية ٦٧ سورة الزخرف .

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .

قيل : ننصره مظلوماً يا رسول الله . فكيف ننصره ظالماً ؟

قال : تمنعه عن الظلم .

ولقد بين الله عز وجل حدود الطاعة الواجبة لمن لهم حق الطاعة كالوالدين مثلاً ، فلم يجعله حقاً مطلقاً في كل أمر من الأمور حتى فيما يغضب الله ، بل قيد هذا الحق بقيوده وربطه بحدوده . قال تعالى :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ^(١)

وفصّاله في عامين : أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) ^(٢) .

نعم ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، لأن الله أولى بالطاعة وأحق بأن تلتزم حدوده وتجتنب محارمه وابتسم رضاه .

ولقد قال أبو بكر - رضي الله عنه - حين تولى الخلافة : « أطيعوني ما أطعت

الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

هذه المبادئ التي بينها الله ورسوله ، وسار عليها الخلفاء الراشدون والأئمة

وأصحاب كل دعوة إلى الحق ، هي في الواقع تكريم لكرامة الإنسان وتحرير

(١) ضعفاً متتابعاً في حالات الحمل والوضع والنفاس والرضاعة .

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ سورة لقمان .

لإرادته من أن تضعف أمام الشهوات والمغريات التي تخطف بريقها القلوب والأبصار ، وتجذب إليها ضعاف النفوس خوفاً أو طمعاً ، كما أنها حامية للإنسان من نفسه أن تميل بالباطل إلى قريب أو صديق .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ^(١) شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ) ^(٢) .

فإذا التزم الإنسان العمل بهذه المبادئ ، وآثر رضا الله على رضا الناس ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان في حمى الله القوى الغنى ، قوياً بالله غنياً عن الناس . أما إذا آثر رضا الناس بسخط الله ، فإن الله يتخلى عنه ويدعه حيث أراد ، عالة على الناس أعطوه أو منعوه ، أكرموه أو أهانوه . ومن وكله الله للناس قامت حياته على أساس واه لا يلبث أن ينهار ، وارتبط مصيره بمستقبل غير مأمون ولا مضمون ، لأن صاحب الجاه قد يذهب عنه جاهه :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) ^(٣) .

ولأن صاحب المال قد يضع ماله أو يبخل به بعد سخاء ، ولأن القوى قد تضعف قواه ، ولأن الصديق قد ينقلب إلى عدو . . . وعندئذ يفقد الإنسان أسناده وتخب آماله ، لأنه انصرف عن الخالق إلى المخلوقين ، وآثر رضا الناس على رضا الله فكان من الخاسرين .

(١) العدل .

(٢) الآية ١٣٥ سورة النساء .

(٣) الآية ١٤٠ سورة آل عمران .

أضمن لكم الجنة

« اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : أصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا أوتمتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم » .

في هذا الحديث يعرض الرسول ﷺ ست خصال لو مارسها الإنسان وحافظ عليها ضمن الرسول أن يدخله الله الجنة . وهو أعظم جزاء يطمع فيه الإنسان ، وخير مآب ينقلب إليه بعد أن تنتهي حياته على هذه الأرض .
وحيث يكون الرسول ﷺ هو الضامن وهو الكفيل فإنها ولا شك صفقة رابحة ، وميثاق قوى ، وجزاء مؤكد محتوم .

وأولى هذه الخصال الست : أن يكون كلامك مطابقاً للحقيقة لا تزيف فيه ولا تحريف ، إذا سئلت عن شيء أجبت بالصدق ، وإذا طلبت في شهادة ذكرت

الحقيقة ، تقول الحق ولو على نفسك أو الأقربين ، ولا تتحدث إلا بما تعلم ، فلا تردد الشائعات وتكون بوقاً للأكاذيب .

ولقد قال الرسول ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .
ذلك لأن الصدق أساس الفضائل ، كما أن الكذب مفتاح كثير من الرذائل .
ولقد جاء أعرابي إلى الرسول ﷺ يعرض عليه أن يدخل في الإسلام ولكنه لا يستطيع أن يتخلى عن كثير من عاداته السيئة ، ومنها الكذب والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من الرذائل . فهاذا كان موقف الرسول من هذا الأعرابي وعرضه العجيب . . ؟

لقد وافق الرسول ﷺ على طلب الأعرابي بشرط واحد . هو أن يعاهده على ترك الكذب . وفرح الأعرابي لأن الرسول لم يحرمه إلا من خصلة واحدة وترك له سائر الخصال . . وأسرع يبايعه على الإسلام . ويعاهده على ترك الكذب .
وبدأت التجربة في حياة الأعرابي وقد ظن أنه حر طليق يمارس من عاداته السيئة ما يشاء إلا الكذب . وهم أن يسرق ولكنه تذكر العهد الذي بينه وبين الرسول ، وقال في نفسه : لو سألتني الرسول ﷺ هل سرقت ؟ فهل أصدق فيقيم عليّ الحد ، أو أكذب وقد عاهدته على ترك الكذب ؟ فأنصرف عن السرقة .
ومرة أخرى هم الأعرابي أن يشرب كأساً من الخمر ، ولكنه أفاق لنفسه وهو يقول : لو سألتني الرسول - ﷺ - هل شربت خمرًا ؟ فهل أصدق فيقيم عليّ الحد ، أو أكذب وقد عاهدته على ترك الكذب ؟ فأنصرف عن شرب الخمر .
وهكذا كان كلما حاول أن يمارس عادة من عاداته السيئة ، تذكر العهد الذي

بينه وبين الرسول على ترك الكذب ، فترك هذه العادة السيئة . حتى تخلص بترك الكذب من جميع ما كان يقترف من رذائل وسيئات . .

على أن هناك نوعاً من الكذب يجوز أن تمارسه . . وهو ما تقصد به إصلاح البين ، والتوفيق بين المتخاصمين . كأن تروى لأحدهما الكلمة الطيبة والنية الحسنة على لسان صاحبه ، فتهداً بذلك حدة الخصومة في نفسه ، وتهدأ القلوب للتسامح والصفاء .

والخصلة الثانية التي ذكرها الرسول ﷺ في حديثه وجعلها مما يؤهل الإنسان لدخول الجنة ، وهي الوفاء بالوعد ، إذا وعدت بشيء فلا بد أن تنى به ، ذلك موقف الإنسان الذي يحترم كلمته ويحافظ على كرامته بين الناس ، إن هذا الوعد الذي تبتله ترتبط به عند الطرف الآخر مصلحة لا تتحقق إلا إذا وفيت بما وعدت ، فإذا أخلفت موعدك تعرض صاحبك لمتابع أو مخاطر أنت المسئول عنها أمام ضميرك وأمام الناس .

فالصانع الذي يحدد موعداً لإنجاز صنعته ، والمدين الذي يحدد موعداً لأداء دينه ، والصديق الذي حدد موعداً للقاء صديقه . . كل أولئك عليهم واجب الوفاء . ومن يعرف أنه لا يستطيع أن يفعل كان عليه ألا يرتبط بهذا الموعد ، وألا يصم نفسه بوصمة النفاق . فقد قال الرسول ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

أما أداء الأمانة ، فهي ثلاثة الخصال التي تدخل الجنة . والأمانة تشمل كثيراً من الأمور : العمل الذي تؤجر عليه أمانة بين يديك ، أهلك وأولادك أمانة أنت راعيها ومسئول عنها . أجر العامل الذي تستخدمه أمانة يجب أن تؤديها قبل أن يحف عرقه . الوديعة التي استُحِفِظَتْ عليها أمانة تحافظ عليها وتردها عند طلبها . أموال اليتامى أمانة في ذمتك ترعاها حتى يبلغوا رشدهم ويأخذوا أموالهم . كلمة السر

يفضى بها إليك صاحبك أمانة تفرض عليك الكتمان ، إلا أن تكون كلمة شر وبغى وعدوان . . .

يقول الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . .) (١)

ويقول تعالى في وصف المؤمنين :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) (٢)

ويقول ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

وأما الرابعة فهي غص البصر عن محارم الله . ألا ينظر الإنسان إلى ما لا يجوز كشفه من المرأة ، ولئن وقع بصره على شيء من ذلك فعليه أن يصرف بصره ولا يتبع النظرة بأخرى . . . إن له النظرة الأولى التي لم يستطع أن يتفادها . أما بعد ذلك فهو انقياد للشهوة ومنزلق للفساد .

وغص البصر واجب كذلك بين المرء وجيرانه . لما يكون بينهما من تكاشف الأحوال ، ولقد تحدث الشاعر العربي القديم عن قانون الشرف والحفاظ على حقوق الجار حيث قال :

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي
حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَاوَاهَا

ولقد جعل الرسول ﷺ للطريق حقوقاً يجب أن يحافظ عليها من يضطره عمله أو مجلسه إلى أن يتخذ مكانه هناك . ومن هذه الحقوق غص البصر . . ولعل في

(١) الآية ٥٨ سورة النساء .

(٢) الآية ٣٢ سورة الماعز .

ذلك ما ينبه الكثيرين إلى سوء ما يفعلون وهم يجلسون على أرصفة المقاهى يؤذون
الرائحات والغاديات بالنظرة المسمومة والكلمة النابية .

لهذا كان غرض البصر عن محارم الله ، مجاهدة للنفس عن الانزلاق وراء
الشهوات . وترفعاً عن التبذل والمجون ، وحماية لأعراض الناس ، ورعاية لآداب
المجتمع .

وأما خامسة الخصال فهي حفظ الفروج : العفة والحصانة عند الرجل
والمرأة . . المحافظة على كرامة الإنسانية في الإنسان . . الطريق الشريف النظيف
للحياة الزوجية الكريمة . . ولهذا كانت عقوبة التفريط في ذلك وتعدى حدود الله
عقوبة شديدة رادعة تصل إلى حد الرجم . وما استهان قوم بذلك إلا فشت فيهم
الأمراض ، واختلطت الأنساب ، وانحلت روابط المجتمع ، وذلت كرامة
الإنسان .

وأما الخصلة السادسة من الخصال التي ضمن الرسول أن يدنس صاحبها الجنة
فهي في قوله ﷺ « كفوا أيديكم » . ذلك أن يكف الإنسان يده عن الأذى وعما
حرمه الله . أن يكون عمل يده للبناء لا للهدم ، لإمطة الأذى عن الطريق
لا بإلقاء القمامة أمام أبواب الجيران . لمساعدة الضعيف لا لمدافعته . للبذل والعطاء
لا للسلب والاعتصاب . للدفاع عن الحق لا للبغي والعدوان .

ثلاث . . . يكرهها الله

إذا كانت هناك خصال يحبها الله ويجزى عليها بالجنة ، لما لها من الأثر الطيب في حياة الفرد والمجتمع ، فإن هناك خصالا يكره الله أن يتصف بها الإنسان المؤمن . والله - جل شأنه - لا يكره للمؤمن إلا ما يعيبه وينقص من إيمانه ، ويجلب عليه وعلى المجتمع الضرر والشقاء .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثر السؤال » .

إن الله يكره القيل والقال . . يكره أن ينقل المرء كلمة السوء ويذيعها بين الناس ، فيوقع هذا بذلك ، ويوغر^(١) صدر الأخ على أخيه ، ويشيع الفاحشة في المؤمنين ، فكم من كلمة تناقلتها الألسنة من فم إلى أذن ، يضيف إليها كل ناقل من

(١) يملؤه غيظًا وحقداً .

تفسيره وتخيله ما يشاء حتى تبلغ الكلمة من تعنيه ، فتكون سبباً في قطع الأرحام .
أو هدم الحياة الزوجية . أو إشعال نار الفتنة بين الناس .

ولقد يسمع الإنسان في أحد المجالس كلاماً تنزلق به الألسنة في حق هذا أو
ذاك ، وهنا تقضى عليه المروءة والأمانة بأن يكتم ما سمع ، فلا ينطلق بهذا الكلام
يردده كالمنذباع في كل مكان . وقد قيل : « المجالس أمانة » .

والأمر الثاني الذى حذر الرسول منه هو إضاعة المال : فإن المال نعمة من نعم
الله تقتضى الشكر ، والشكر إنما يكون برعاية هذه النعمة ، والمحافظة عليها وحسن
استثمارها ، وإنفاقها في وجوهها المشروعة .

والمحافظة على المال لا تكون بحبسه واكتنازه ، فخلق المال إلا للتداول بين
الناس ، وتحقيق النفع لهم عن طريق استثماره في المشروعات النافعة ، وإنفاقه في
أوجه الخير . ولقد توعد الله الذين يكتزون المال ويحبسونه عن مصارفه بالعذاب
الشديد .

كان الرسول ﷺ جالساً في المسجد حين جاء إليه رجل يسأله شيئاً ، فقال
الرسول : اجلس ، فسيرزقك الله . ثم جاء ثان وثالث . وأقبل رجل ومعه أربع
أواق من الفضة فقدمها بين يدي الرسول وقال له : يا رسول الله ، إن هذه صدقة .
فدعا الأول فأعطاه أوقية . ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية . ثم دعا الثالث فأعطاه
أوقية . وبقيت الأوقية الرابعة . فعرضها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها
تحت رأسه وقد افترش عباءته وظل ساهراً لا يطرق النوم جفنه ، فيقوم فيصلى ، ثم
يرجع إلى فراشه فلا يستطيع النوم ، فيعود إلى صلاته . . فعل ذلك مرات عدة ،
حتى ظنت به عائشة - رضى الله عنها - أمراً فقالت له : يا رسول الله ، هل بك
شيء ؟ فقال : لا .

فقالت : أفجاءك أمر من الله ؟ قال : لا .

قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئاً لم تكن تفعله . فأخرج الأوقية وقال لها :
هذه التي فعلت في ما ترين . إني خشيت أن يقبضني الله ولم أمضها^(١) .
أوقية من الفضة أقضت^(٢) مضجع الرسول ﷺ ، فظل ساهراً يذود عن
عينيه النوم ، لأنه يخشى أن يدركه الموت في ليلته تلك قبل أن ينفق هذه الأوقية في
سبيل الله .

وإنفاق المال في وجوهه المشروعة لا يعتبر مضيعة للمال ، ولكنه تنمية له يعود
على صاحبه بالربح الحلال ، كما يعود على المجتمع بالمنفعة العامة التي يفيد منها
جميع أفرادهم ومنهم صاحب المال نفسه .

ولقد حث الله على إنفاق المال في مصارفه المشروعة ، ووعد الذين ينفقون
أموالهم في سبيل الله بأن يرد إليهم ما أنفقوا أضعافاً مضاعفة . وضرب لذلك مثلاً
فقال سبحانه وتعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ)^(٣) .

وإن في قصة عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - مثلاً رائعاً على ما يصيب
المنفق في سبيل الله من بركة في الرزق وزيادة في المال . فقد هاجر عبد الرحمن
ابن عوف إلى المدينة فقيراً لا يملك شيئاً ، فأخى الرسول ﷺ بينه وبين سعد

(١) أنفقها .

(٢) جعلت فراشه كالشوك .

(٣) الآية ٢٦١ سورة البقرة .

ابن الربيع وكان من نقباء^(١) الأنصار . فعرض عليه ابن الربيع أن يقاسمه أمواله وأن يطلق له أجمل زوجتيه . فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك في أهلك ومالك . وطلب منه أن يدلّه على السوق . فباع واشترى وربح . وما زال يحترف التجارة حتى صار من الأغنياء .

وكان عبد الرحمن بن عوف مع غناه هذا أجود ما يكون في سبيل الله . تصدق مرة بنصف ماله . ثم تصدق بأربعين ألف دينار . وجهز مرة خمسمائة فرس في إحدى الغزوات . ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله . وكان كلما أنفق مالا عوضه الله أضعاف ما أنفق .

ولقد قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبعائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما دخلت المدينة أحدث دخولها ضجة عظيمة بين الناس . فبلغ عائشة - رضى الله عنها - ذلك فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عبد الرحمن لا يدخل الجنة إلا حبواً . فلما بلغه ما قالت عائشة ذهب إليها فقال : يا أمه ، إني أشهدك أنها بأحبالها في سبيل الله . إنه لا يريد أن يدخل الجنة حبواً تثقل خطاه هذه الأموال ، ولهذا أنفقها في سبيل الله ليدخل الجنة هرولة !

وقال طلحة بن عبد الله : كان أهل المدينة عيالاً على عبد الرحمن بن عوف : ثلث يقرضهم ماله ، وثلث يقضى دينهم ، وثلث يصلهم ، أى يقدم لهم الهدايا والصلوات .

هذا هو عبد الرحمن بن عوف الذى كانت حياته سخاء وعطاء وبذلاً في سبيل الله . أنفق من ماله ما أنفق فكان ماله يزيد مع الإنفاق أضعافاً مضاعفة ، حتى توفي عن ثلاثمائة وعشرين ألف دينار ، وثلاثة آلاف شاة ، وألف بعير ، ومائة فرس ، وأرض تزرع على عشرين بئراً في ظاهر المدينة .

(١) زعماء .

إنها الحبة المباركة التي تثبت سبعائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء .
أما إضاعة المال التي نهى الرسول عنها ، والتي قال إنها إحدى ثلاث يكره الله
أن يتصف بها المسلمون ، فهي إنفاق المال في غير وجوهه المشروعة : الإمراف ،
والمقامرة ، وسوء استثمار المال . كل ذلك يودى إلى ضياعه ويورث صاحبه الفقر
والندم .

وأما الثالثة وهي كثرة السؤال فإنها تعرض الإنسان للشدة بعد اليسر ، وللضيق
بعد السعة . قال ﷺ : « إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم
على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء
فدعوه » .

وليس السؤال بقصد الاستزادة من العلم أمراً مكروهاً ، ولكن السؤال المكروه
هو ما يتجاوز الحد ، ويتحول إلى ما يشبه الفضول ، ويتسم بروح الجدل والتنطع .
وقد يؤدي مثل هذا السؤال إلى جواب فيه ما يسوء .
يقول الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ
تَسْؤُكُمْ) (١) .

ولقد كانت كثرة السؤال من الصفات الذميمة التي اقصفت بها بنو إسرائيل ،
بدافع اللجاجة وسوء الأدب مع الله وأنبيائه .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا
اتَّخِذْنَا هُزُؤًا (٢) ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا

(١) الآية ١٠١ سورة المائدة .

(٢) هل نهرأ بنا .

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ^(١) وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ^(٢) بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ^(٣) تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ^(٤) لَا شِيَةَ فِيهَا^(٥) . قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ^(٦) .

وهكذا كانت كثرة سؤال بنى إسرائيل في موضوع البقرة التي أمرهم الله بذبحها سبباً في التشديد عليهم . فلو أنهم نفذوا أمر الله كما ألقى إليهم أول مرة لتقبل الله منهم أية بقرة يذبحونها . ولكنهم طبعوا على العناد والتنطع فظلوا يسألون موسى ويكثر من السؤال . . وفي كل مرة يأتيهم جواب يضيق عليهم اختيار البقرة ويلزمهم بأن تكون ذات صفات معينة وقد كانوا في حل لولا كثرة السؤال .

(١) كبيرة السن .

(٢) متوسطة السن .

(٣) لم تذلل بالعمل .

(٤) بريئة من العيوب .

(٥) لا لون فيها بخالف لون سائر جلودها .

(٦) الآيات ٦٧ - ٧١ سورة البقرة .

دع ما يريبك

والأمر الذى يريب هو الذى يجعل صاحبه فى موضع الريبة والتهمة ، فيظن الناس به الظنون ، وهو الأمر الذى يثير فى نفس صاحبه الشك : أحق هو أم باطل خطأ أم صواب ولهذا يقول الرسول ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . . . ذلك أن من الأمور ما يفعله الإنسان بنية طيبة وقصد سليم ، ولكنه قد يثير الظنون ويبعث على التهمة ولو بغير حق . ومثل هذه الأمور يجب على العاقل أن يجنب نفسه هذه المواقف . وألا يستهين بأسبابها اعتماداً على حسن نيته وسلامة قصده ، حتى لا يلصق بنفسه تهمة هو منها برىء ولا يعرض غيره للوقوع فى سوء الظن والاتهام الباطل . قال ﷺ : « رحم الله امرأً جَبَّ الغيبة عن نفسه » . أى قطع أسباب الغيبة وأغلق أبوابها بالبعد عن مواقف الريبة والظنون .

فهذا الموظف الذى يستقبل صاحب الحاجة بحفاوة بالغة ، ويظهر له من

الاهتمام بأمره ما يتجاوز الحد المألوف . ويتطوع لإنجاز حاجته عند هذا أو ذاك من زملائه الموظفين . . قد يكون حسن القصد فيما يفعل ، وقد يكون على علم بشدة الحاجة عند هذا المواطن ، ولكنه قد يطلق بذلك علامات الاستفهام من أنظار زملائه ، ويثير في نفوسهم الريبة والشك في دوافع هذه الحفاوة وهذا الاهتمام . فإذا لم يكن على علم بشدة الحاجة عند هذا المواطن ، وليست له علاقة تبرر هذا السلوك ، أثار كذلك الريبة والشك في صاحب الحاجة ، وجعله يظن به الظنون . وليس معنى هذا أن يمتنع الموظف عن حسن استقبال أصحاب الحاجة ، أو يتراخى في إنجاز حاجتهم ، فإن هذا التصرف كالتصرف الأول . . كلاهما يتجاوز القصد وحد الاعتدال . وحسب الموظف والعامل وكل من يرتبط عمله بمصالح الجماهير ، أن يؤدي واجبه كما ينبغي : معاملة طيبة للناس وإنجاز للعمل في موعده ، وأداء هذا العمل على وجهه الصحيح دون تفرقة في هذا السلوك بين شخص وآخر . إن فعل كل عامل ذلك ، وكان هذا هو السلوك العام بين العاملين ، لم يكن العامل في تصرفه الطيب هذا مع الناس موضع الظن والريبة ، ولم يمنح بعض أصحاب الحاجة إلى الأساليب المنحرفة في قضاء حوائجهم . وقد تكون أرملة جارك وبناته في حاجة إلى من يرعى شؤونهن ويقضى مصالحهن ، فتكثر من التردد عليهن لقضاء هذه المصالح ، وأنت تستشعر بذلك حق جارك عليك في أهله . ولكن هذا الموقف الإنساني الكريم إذا تجاوز حدوده أثار حولك وحول هذه الأسرة كثيراً من الظنون ، فتسوء بذلك إلى نفسك وإلى أرملة جارك وبناته من حيث تريد الإحسان .

على أن للأمر وجهاً آخر يجدر أن يتدبره الإنسان إذا كان موقعه في الطرف المقابل ، فكما يجب على الإنسان أن ينأى بنفسه عن مواقف الريبة والظنون ، كذلك يجب أن يكون الإنسان حسن الظن فيما يرى أو يسمع ، وألا يجرى وراء

الأوهام والشكوك : أو تأويل بعض التصرفات والمواقف بدوافع مريبة . يقول الله تبارك وتعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)^(١) . وذلك حتى لا يقع الإنسان في إثم كبير ، وقد تؤدي ظنونه الباطلة إلى إلحاق الأذى بمن أساء بهم الظنون ، وإلى إشاعة الفاحشة وإشعال نار الفتنة بين الناس .

والظن يكون عادة صورة من نفس صاحبه ، فقد يرى الرجل موقفاً بين اثنين فيحسن الظن بهما ولا يرى فيه إلا خيراً ، ويرى هذا الموقف نفسه رجل آخر فيسيء الظن بهما ولا يرى فيه إلا شراً . ذلك لأن الأول طيب النفس سليم النية ، فذلك ينعكس على سلوكه وتصوره وظنه بالناس ، والآخر خبيث النفس مريض القلب ، فهو لا يرى في الناس ولا يظن بهم إلا ما تعكسه نفسه الحيثة وقلبه المريض ، من ظنون سيئة وأوهام سوداء .

ولقد توعد الله باللعة والعذاب العظيم أمثال هؤلاء ممن يظنون ظن السوء ويفترون على الناس غير الحق ، فقال سبحانه وتعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)^(٢) .

(١) الآية ١٢ سورة الحجرات .

(٢) الآية ٢٣ سورة النور .

وقال تعالى :

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)^(١) .

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)^(٢) .

وإن من البعد عن الريبة في النساء ، وتجنب مواقف التهمة والظنون ، أن تلتزم المرأة حدود الاعتدال والقصد في الزينة ، وأن تكون جادة في السير والحديث ، حتى لا تثير حولها الريبة أو تطمع فيها ضعاف النفوس . يقول الله تبارك وتعالى مخاطبًا أمهات المؤمنين وهن القدوة لسائر المؤمنات :

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ، فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)^(٣) .

ويقول عز وجل :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

(١) الآية ٥٨ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٩ سورة النور .

(٣) الآية ٣٢ سورة الأحزاب .

عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١) .

وهناك معنى آخر من معاني الريبة ، في حديث الرسول ﷺ ، حيث يقول :
« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . هذا المعنى هو الشك والحيرة بين أمرين أيهما
يأخذ الإنسان وأيها يدع . والميزان الذي يرجح كفة على أخرى في مثل هذا الموقف
هو قول الرسول ﷺ : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمها
كثير من الناس ، فمن اتقى المشتهيات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في
المشتهيات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ،
ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه » .

نعم : الحلال بين والحرام بين ، كلاهما واضح نراه العين ويدركه العقل وبحسه
القلب ، وإذا واجهت الإنسان أمور لا يعلم وجه الحق فيها تركها إلى ما يعلم وابتعد
بنفسه عن هذه الأمور المشتهيات . إنه بذلك يصون دينه وعرضه . أما إذا استهان
بالأمر وترك ما يعلم وتجاوز الحدود الواضحة إلى ما وراء هذه الحدود . فإنه قد
لا يسلم من الوقوع في الخطأ والإثم ، مثله في ذلك مثل راعي الغنم الذي يترك الكلاً
المباح في الأودية والمراعي العامة ، ويحوم بغنمه حول المزارع فلا يأمن أن تنزل بها
غنمه ، ويقع بسبب ذلك في كثير من المشكلات .

ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه . فينبغي ألا يقترب الإنسان من هذا الحمى
حتى لا يقع فيما حرم الله ، وألا يستهين بالأمور المشتهيات فيقع في الإثم من حيث
لا يدري ، وخير له أن ينأى بنفسه عن ذلك كله ، وأن يدع ما تحيط به الريبة
والشكوك إلى ما هو بين واضح لا لبس فيه ولا غموض .

(١) الآية ٥٩ سورة الأحزاب .

وهناك مرتبة أعلى من ذلك . وسلوك أكثر حرصاً وأسلم عاقبة ، وهو ما يفسره قول الرسول ﷺ : « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مما به بأس » وهناك ميزان آخر يستطيع الإنسان أن يفرق به بين الأمور المشتبهات وغيرها . إنه ميزان يحمله كل إنسان في حنايا صدره ، وهو ميزان لا يخطئ التقدير ولا يخدع صاحبه . ذلك هو قلب الإنسان الذي بين جنبيه .

فإذا واجهت موقفاً كان عليك أن تختار فيه بين أمرين ، فاعرض الأمرين على قلبك واستمع إلى دقاته . . . إنه يعطيك الجواب الحاسم الصريح . . ما اطمأن إليه قلبك فهو الحق الذي ينبغي عليك اتباعه وإن خالف هواك ، وما اضطرب منه قلبك فهو الباطل الذي يجب عليك اجتنابه وإن هفت إليه نفسك .

وبذلك تنأى بنفسك عن مواطن الريبة والظنون إلى مواطن الحق واليقين .